[مناقب الإمام أحمد][1]

فصلٌ في بعض مناقب أحمد بنِ حنبل البغدادي رحمه الله

رُوي أنَّه كان من أزهدِ خلقِ الله تعالى وأورعهم، ومُستجابَ الدعوة[2]، وكان يتمكّن في بغداد، ولم يأكلْ من حنطةِ أراضيه، ويقول: قد وقفَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراضيه لغزاة المسلمين[3]، وكان يشتري الدقيق من أرض الموصل ويعيش به.

* وله ابنٌ عالمٌ ورعٌ اسمه صالح، صائمٌ في نهاره، وقائم في لياليه، وجعل الخليفةُ الصالحَ قاضيًا في أصفهان بتكليفٍ لا بطلبه، فجلسَ مجلسَ القضاء قدر سنةٍ، وكان لم يسدَّ بابَ المحكمة لئلا يرجعَ أصحابُ الحاجات المضطرّين، ثم فرغ من القضاء، وتقاعد ببغداد.

* فيومًا أرادوا الاستخباز في بيت أحمد، ولم يجدوا المادة ـ أي الخمير الحامض فيه ـ وطلبتْ زوجةُ أحمد مادةً من بيت ابنها صالح، ثم لمّا أحضرتِ

---

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٥٤، التاريخ الكبير ٢/ ٥، التاريخ الصغير ٢/ ٣٤٥، الجرح والتعديل ١/ ٢٩٢، و٢/ ٦٨، حلية الأولياء ٩/ ١٦١، تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، طبقات الحنابلة ١/ ٤، تاريخ ابن عساكر ٧/ ٢١٨، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٣٢٥، صفة الصفوة ٢/ ٣٣٦، تذكرة الأولياء ٢٧٦، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١١٠، مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٢٤٠، وفيات الأعيان ١/ ٦٣، تهذيب الكمال ١/ ٤٣٧، سير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧، الوافي بالوافيات ٦/ ٣٦٣، مرآة الجنان ٢/ ١٣٢، البداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥، غاية النهاية ١/ ١١٢، تهذيب التهذيب ١/ ٢٢، طبقات الحفاظ ١٨٦، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٥٤، الكواكب الدرية ١/ ٥١٧.

(٢) في (أ): ومن مستجاب الدعوة.

(٣) في (ب): لنفرات المسلمين.

الخبزَ للإمامِ أحمد، والتقمَ منه لقمةً، وجدَ طعمَهُ مُتغيِّرًا، ولم يَسُغْ من حلقه، فقال: من أين الخبزُ؟ فقالت: من دقيقِنا[1]، لكن خميرُهُ من بيت ابنك الصالح. فمجَّه، فقال: خبزُ القاضي لا يسوغُ من حلقي. فقالت: ما نفعلُ بذلك الإخبازِ؟ قال: إذا جاء السائل والمسكين بالباب، قولوا: أَتأكلُ خبزَ القاضي[2]؟ فإن قبلوه، فأنفقوا لهم. ومرَّ على ذلك أربعون يومًا، ولم يقبلْه سائلُ ذلك الزمان، وقد خرجَ الإخبازُ عن الانتفاع، فألقوه في الدجلة، وكان أحمدُ يميلُ لحم السمك، فقال يومًا: ما فعلتم بالإخباز؟ قالوا: ألقيناه بالدجلة. بعد ذلك لم يأكل من سمك الدجلة.

* رُوي أنَّ أحمد بنَ حنبل يُفتي الناسَ بالشريعة، وإذا سُئل عن الحقيقة يقول: سلوه بشرَ الحافي قُدِّسَ سرُّه فإنَّ علمَها عنده.

* رُوي أنَّ عجوزةً في بغداد كانت زَمِنَةً، فعجزَ ابنُها عن خدمتها مستكرهًا، فعرفتْ سآمةَ ابنها واستكراهه، وقالت: يا بني، اذهبْ إلى أحمد بن حنبل، فليدعُ لشفائي، لعلَّ الله تعالى سلّمني بدعائه، وتسلم عن الأذى. وجاء الشابُّ إليه، فدعا لها أحمدُ بالشفاء، ورجع الشابُّ، فلمّا أَتى بابَهُ استقبلته أُمُّهُ ماشيةً بالسرور، فحمدَ الله تعالى.

* رُوي أنَّ رجلاً كان يتوضَّأُ في الدجلة، وجاء أحمد وشرع الوضوء أسفلَ منه، وقام الرجل ومشى، وأتمَّ وضوءَهُ أسفلَ من أحمد، ثم لمَّا توفّي الرجلُ، رآه راءٍ في المنام[3]، وقال: ما فعلَ الله بك؟ قال: إنَّ الله تعالى غفرَ لي بمحافظةِ الأدب في تركِ الوضوء فوق عالمٍ.

* ورُوي أنَّ أحمد بنَ حنبل كان من شيوخِ أَهل السُّنة والجماعة، وخليفةُ

---

(١) في(أ): فقالت: ما نفعل بذلك الإخباز من دقيقنا.

(٢) في (ب): أتأخذ خبز القاضي.

(٣) في (أ): ثم مات الرجل، ورآه أحمد في المنام.

بغداد يومئذ كان على مذهب الاعتزال، وكانوا يُبغضون أحمد، فيومًا قال الخليفة له: ما تقولُ إنَّ القرآنَ مخلوقٌ أو غير مخلوق؟ قال: إنَّه غيرُ مخلوق. قال: لئن لم تقلْ إنَه مخلوقٌ لأضربنَّكَ ضربًا شديدًا. فقال: لا أقولُهُ ولو ضربتَ عنقي. فضربوه ألفَ سوطٍ[1]، فصبرَ، ولم يقلْ ما كلّفوه؛ لحفظ مذهبه[2]، فحتى انقطع تكَّتُهُ من الضرب، ويداه مغلولة، فظهرَ اليدان وخاطت تكَّتَهُ، لئلا تنكشفَ عورتُهُ[3]، فلمّا رأوه خلّوه فحمةً، ثم حملوه إلى بيته، فورم جسدُهُ وازداد ألمُهُ وضعف ساعةً فساعة.

* قال ابنُهُ صالحٌ: كنتُ على وسادته حالَ احتضاره، سمعتُ أنَّه يقول: لا بعد، لا بعد، ثم فتح عينيه، ونظر إليَّ، فقلتُ له: يا أباه، أيُّ كلامٍ هذا في هذه الحالة؟! قال: يا بُني، إنَّ أولياءَ الله تعالى قد أَحاطوا حوالي جالسين، فلم يجدِ الشيطانُ أن يتقدَّمَ إليَّ فرجةً، وكان في معزلٍ من منظري يحثُّ التُّرابَ على رأسه، ويقول: خلصتَ عنّي، وأيستُ منك. فقلتُ له: لا بعد.

ثم قال: يا بُني، هذا محلُّ الخطر، أَعنّي بالتلاوةِ والذكر والدعاء؛ لعلَّ الله تعالى يَعصمني. فطارتْ روحُهُ المطهّر إلى مقامِ الأُنس.

قال: فلمّا رفعنا جنازتَهُ، نزل من السماء طيورٌ لا يُحصى، وأَحطن جنازته حتى امتلأ الفضاءُ، فكان الناسُ كلُّهم رأوها مسلمًا كان أو كافرًا، فبهذا العبرةِ

---

(١) ضربَ الخليفة المعتصمُ الإمامَ أحمد أربعة، أو ثمّانًا وثلاثين سوطًا، وكانت من الشدّة أن قال رجلٌ ممّن يُبصر الضرب والعلاج لمّا رأى ضربَهُ: قد رأيت من ضُرب ألف سوط، ما رأيتُ ضربًا مثل هذا. سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥٣، ٢٥٦.

(٢) جاء في هامش (ب) مانصه: مذهب أحمد في خلق القرآن أنه غير مخلوق مُطلقًا، أي سواء كان كلام الله تعالى أو المفرّق في ألسنتنا. أما القرآن فهو كلام الله غيرُ مخلوق؛ لأنه قديم باتّفاقِ مشايخ أهل السُّنة، وأما القرآن الذي مفرّق بألسنتنا، ومكتوب في مصاحفنا بالجهد المؤلفة فمخلوق وحادث عندنا، أي الماتريدي.

(٣) أورد هذه الحادثةَ الإمامُ الذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٥٦ ووهَّاها، واتَّهم من جاء بها بالكذب، وأنها من الخرافات السمجة.

قد آمن في الساعة أربعون ألفًا من اليهود والنصارى[1].

* فسُئل الشافعي: بأن أحمد بنَ حنبل له نفعٌ لعامَّةِ المؤمنين في حياته، فما الحكمةُ في نفعه بعد موته؟ فأجاب: بأنه كان يَدعو بدعوتين دائمًا في الشفاعة، وهما أنه يقول: اللهم، إنَّ كلَّ من هديتَهُ ورزقته بالإيمان، فأثبته على الإسلام، وكلَّ من لم تهدِهِ بعدُ فاهدِهِ بفضلِكَ، وازرقْهُ بالإيمان برحمتك، يا أرحم الراحمين[2]. فاستجابَ اللهُ دعاءَهُ، وقبلَ شفاعتَهُ، فسيظهر آثارُها للمؤمنين عند خاتمتهم، وقد ظهر آثارُ دُعائه للكفرة عند خاتمة أحمد رحمة الله عليه رحمةً واسعة.

* قال محمد بن خزاعة: رأيتُ أحمد بنَ حنبل بعدما تُوفِّي مُتوَّجًا بتاجِ الكرامة، ومُنتعلاً بنعلِ العزَّة، يمشي ويتبخترُ في دار السلام، فقلت: بأيِّ عملٍ نلتَ بهذه الكرامة؟ قال: بعدم قولي بخلقِ القرآن.

* * *

وقد تركتُ مناقبَ مالك بنِ أنس لميله إلى مذهب الاعتزال في بعض المسائل الاعتقاديات[3]، وإن كان واحدًا من الأئمة الأربعة المُجتهدين.

* * *

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: هذه حكايةٌ منكرة... ثم العادة والعقل حيل وقوع مثل هذا، وهو إسلام ألوف من الناس لموت وليٍّ لله، ولا ينقل ذلك إلاّ مجهول لا يُعرف، فلو وقع ذلك لاشتهر ولتواتر؛ بل لو أسلم لموته مئةٌ نفسي لقُضي من ذلك العجب.

(٢) جاء في هامش (ب) ما نصه: وينبغي أن يقول بعد هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، برحمتك يا أرحم الراحمين؛ ليعمَّ الدعاء جميع الناس.

(٣) في (ب): مذهب المعتزلة في بعض المسائل الاعتقادية.